محمد العبد الله

# الباسل لم يضل الطريق

مجموعة مقالات

# ما زال يلقي تحية العروبة والوطن والتحرير

## «باسل الأعرج» الشهيد والوصية

محمد العبد الله*

«إننا إذا اتحدنا جميعاً فإننا سنصبح أقوى من (الغزاة) البيض.. وهل كتب على بني جنسنا ألا يتخلصوا من ثالوث الحماقة والاستكانة والجبن؟».

(من خطبة زعيم المقاومة الهندية «تِكومْسِه» في أوائل القرن التاسع عشر)

في ساعات الفجر الأولى من يوم الاثنين 6 آذار الحالي. دارت اشتباكات عنيفة بين إحدى مجموعات النخبة في جيش الاحتلال الصهيوني ومقاوم متحصن في «سقيفة / سدة» منزل في مدينة البيرة بالقرب من مسجدها الكبير في الضفة الفلسطينية المحتلة. ساعتان من الزمن، خاض فيها المناضل المطارد «باسل الأعرج» مواجهة عنيفة مع الغزاة، بإرادة صلبة وواعية لم تنكسر، وببندقية ورصاص استنفد حتى الطلقة الأخيرة، ليرتقي بعدها شهيداً.

لم يكن «الباسل» اسماً مجهولاً، لا للعدو المحتل، ولا للسلطة، ولا لقوى الحراك الشبابي، ولا لكوادر وأعضاء القوى والحركات والهيئات الوطنية. كان ناشطاً سياسياً وجماهيرياً معروفاً لدى الجميع، لكنه كان متفرداً بين رفاقه وزملائه، من خلال إصراره على المزج الكامل مابين البحث والمتابعة لكل مجالات المعرفة للارتقاء بالوعي النظري، وربط ذلك بالممارسة / التطبيق. ترك عمله واختصاصه الأكاديمي «الصيدلة» وانطلق في جبال ووديان الضفة، باحثاً في أحوال الناس وتاريخهم الشفوي، ومنقباً في الأرض عن كل ما من شأنه أن يربط تاريخ شعبه بوطنه. طَوَّع الكلمات والنظريات لتتطابق مع الممارسة العملية ضد المشروع الصهيوني وأداته المباشرة «الغزاة المحتلين». قاوم مع رفيقاته ورفاقه كل إفرازات «اتفاق أوسلو» على الأرض وفي العقل الجمعي/المجتمعي .وقاد مع مجموعة من الشباب والصبايا في عام 2012 مظاهرات الرفض لدعوة مجرم الحرب «موفاز» لزيارة رام الله، واستطاعوا، بفرض صوابية موقفهم وصلابة إرادتهم واتساع التضامن الشعبي معهم، منع القاتل من القدوم، بعد أن تعرضوا للضرب والسحل على يد أجهزة أمن السلطة. تلك الأجهزة التي أعادت اعتقاله مع مجموعة من رفاقه في آذار 2016 في إحدى تنقلاتهم الميدانية في الريف الفلسطيني تحت دعاوى «التحضير والتخطيط لتنفيذ عملية مسلحة ضد العدو المحتل». تعرضوا جميعاً للتعذيب الوحشي خلال الأشهر الخمسة التي أمضوها بالمعتقل الرهيب. لكن الصلابة والتحدي قادا الجميع لإعلان الإضراب عن الطعام، ما اضطر قيادة السلطة لإطلاق سراحهم، استجابةً لحملات شعبية واسعة، ولعدم ثبوت التهمة الموجهة لهم.

توارى باسل بعد إطلاق سراحه عن الأنظار، بعد أن اعتقل العدو بعضاً من رفاقه. وتنقل متخفياً تحت اسم مستعار من مكان لآخر، في نشاط دؤوب لتعميم أسلوب ونهج المقاومة، بالفكرة والممارسة. حاصرته وحدة «يمام» الخاصة من قوات الاحتلال، وطالبته بالاستسلام.

لكنه أعاد التأكيد بما كتبه وهو رهن الاعتقال في سجون السلطة «هيهات منا الذلة». رفض رفع الراية البيضاء. هذا ما قاله شقيقه في نعيه: «لم تسلم لهم، ومثلك لا يعرف التسليم. اخترت أن تكون مقاوماً وأن تموت شهيداً مقبلاً مشتبكاً لا خانعاً» وهكذا ارتقى شهيداً، تاركاً لنا بندقية مع مخازنها الخالية من الرصاص، ومئات الطلقات الفارغة وكتباً ووصية وجسداً اخترقته نيران المحتل الغادر، وكوفية مضمخة بدمائه.

لم يكن باسل شهيد الانتفاضة الشبابية الراهنة، التي تجاوزت العام والنصف، هو الأول ولن يكون الأخير. سبقته صبايا وشباب بعمر الورود، يواجهون جنود المستعمرين وقطعان مستوطنيه، بالطلقة والسكين والدهس في عمليات بطولية، فردية، تعبر عن حالة ثورية تعكس درجة التضحية الاستثنائية لدى الفرد، الذي يتعرض في كل ساعة لاضطهاد المحتلين، الذين يعملون على استباحة أرضه وبيته ومقدساته.

أضاءت وصية الشهيد باسل النور على شخصية مثقفة ومناضلة، تمتلك وعياً ثورياً، لم يتوقف عند الماضي والحاضر، بل استشرف المستقبل، بلغةٍ، عكست ثقافةً لمثقفٍ مقاتل يقف في طليعة المدافعين عن قضية تحرر شعبه ووطنه. وضع شهيدنا كل الوعي المختزن في خدمة البندقية المقاتلة من أجل التحرر الوطني .وهنا، يتماهى المقاتل المثقف «الباسل» مع شهيد الكلمة/ الموقف، الكاتب المبدع «غسان كنفاني» حين كتب: «كل قيمة كلماتي كانت في أنها تعويض صفيق وتافه لغياب السلاح، وإنها تنحدر الآن أمام شروق الرجال الحقيقيين الذين يموتون كل يوم في سبيل شيء أحترمه»، ولهذا كان الباسل من إشراقة أولئك الرجال الحقيقيين الذين مزجوا الكلمات/ الأفكار مع السلاح، من أجل حرية وطنهم وكرامة شعبهم. وهو ما كان يقوله في كل الندوات واللقاءات عن الثقافة والمثقف «بدك تصير مثقف، بدك تصير مُشتبك، ما بدك مُشتبك، بلا منك وبلا من ثقافتك : من كلماته في ندوة بمدينة جنين في العام المنصرم».

في الوصية التي تركها، تكثيف للقناعات المبدئية، وللأفكار وللنهج. في البدء يلقي «تحية العروبة والوطن والتحرير» في تأكيد على الماضي والحاضر :الانتماء القومي والوطني وكيف يفهم ذلك في إطار عملية التحرير. أما صوابية الاختيار فيؤكدها بقناعة راسخة وثابتة «أنا الآن أسير إلى حتفي راضياً مقتنعاً وجدت أجوبتي. يا ويلي ما أحمقني، وهل هناك أبلغ وأفصح من فعل الشهيد؟». أما عن استشراف المستقبل فقد خاطب بكلمات كحد السيف كل من يقرأ الوصية «كان من المفروض أن أكتب هذا قبل شهورٍ طويلة، إلا أن ما أقعدني عن هذا هو أن هذا سؤالكم أنتم الأحياء، فلماذا أجيب أنا عنكم، فلتبحثوا أنتم .أما نحن -أهل القبور- فلا نبحث إلا عن رحمة الله .«بوصية ترقى إلى برنامج العمل، أكد الباسل على دور المثقف والثقافة، واستحق صفة «المثقف المشتبك» كحالة تؤسس لـ«المواطن المشتبك» مع الغزاة والتخلف والاستسلام.

***كاتب فلسطيني**

http://tishreen.news.sy/?p=80857

22/03/2017

**جريدة تشرين – صفحة رؤى عربية**

# باسل الأعرج ... في حضرة الفكرة والشهادة *

## قراءة في كتاب وجدت أجوبتي +

محمد العبد الله

(كاتب فلسطيني)

عامان مرا على ذلك الفجر الدامي ليوم السادس من شهر آذار / مارس 2017 حينما بادر مُطارد فلسطيني لإطلاق النار على عناصر وحدة «يمام» في جيش الغزاة المحتلين، الذين طوقوا المكان الذي يختفي به منذ عدة أشهر في مدينة البيرة بالضفة الفلسطينية المستباحة، بهدف إعدام/ تصفية «باسل الأعرج». قاوم «المطلوب رقم 1» المتحصن في سدة المونة في المنزل المحاصر، ببسالة ثورية حتى استشهد ،ولم يرفع الراية البيضاء كما قال شقيقه في نعيه : «لم تُسَلّم لهم، ومثلك لا يعرف التسليم. اخترت أن تكون مقاوماً وأن تموت شهيداً مقبلاً مشتبكاً لا خانعاً».

رغم سنوات العمر الـ «32» التي عاشها باسل، لكنها، رغم قصرها، كانت زاخرة بالإنجازات. فما بين التحصيل الجامعي «الصيدلة» والامتلاك المعرفي – النظري فقد «أتم قراءة 3000 كتاب، حتى الخامسة والعشرين من عمره، في كل المجالات من التاريخ والسياسة والإجتماع والفكر والعسكرية التي ركز عليها في الفترة الأخيرة». الاقتباس من حوار على موقع بيلست الإخباري في 20 آذار / مارس 2017 مع شيرين الأعرج عمة الشهيد باسل، وهي الأكثر قرباً منه، إذ أسهمت بصقل شخصيته في المراحل الأولى من حياته .

لهذا لايمكن لعشرات الدقائق، أن توفر لي الوقت المناسب للتحدث عن حياة الشهيد بما تتدخره من معرفة وتجربة ودور. هذه الحياة التي نجد تكثيفاً لها في كتاب«وجدت أجوبتي». لأن هذا الوقت من الزمن لايكفي لقراءة مايمتلكه عقل مثقف و مناضل في كل المواقع التي تواجد فيها، ولا لسماع نبضات قلب مُفعمة بالثورة وحب الشعب وأرض الوطن. لأنني أمام سردية تاريخية، وطنية وقومية وأممية، كتبها الشهيد في فترات متقطعة، وتم جمعها على يد أصدقاء وصديقات لباسل بعد استشهاده «عدد من الأبحاث والدراسات، والتعليقات والبوستات على شبكة التواصل الاجتماعي، والمحاضرات واللقاءات التي أنجزها في جولاته الميدانية في القرى والبلدات على اليوتيوب، التي تُقَدر بآلاف الصفحات». وقد تمكن أحبة باسل، الشخص والنهج، بجهد استثنائي في ظروف الاحتلال، من تجميع جزء منها في كتاب «وجدت أجوبتي...هكذا تكلم الشهيد باسل الأعرج»، الذي طُبع في القدس المحتلة في الذكرى السنوية الأولى لاستشهاده، ليُطبع بعدها بأسابيع قليلة في بيروت. بعض ماتم نشره له علاقة بالحدث السياسي المباشر، والجزء الأكبر منها،استحضار للتجارب الوطنية بكل تفاصيلها ومنمناتها، لتحليلها واستخلاص الدروس والعِبَر منها لتَستفيد منها الأجيال في معركة التحرر الوطني التي تخوضها ضد الغزاة المحتلين.لأن الشهيد قد تعامل مع تلك «الأحداث والتجارب» بخلفية نظرية، نهلت من الأفكار التحررية العالمية لمفكرين ثوريين «غيفارا وماوتسي تونغ وفرانز فانون ومالكولم اكس وعلى شريعتي».

وسأحاول في الوقت المتاح لي استعراض أبرز ماتضمنه الكتاب، رغم أن مئات الصفحات التي شكلت محتواه، نجد فيها مايمكن أن يُشكل مادة للحوار في عدة لقاءات، لأن أهمية الموضوعات تأتي كونَهَا جزءاً مما صاغه باسل في حياته من أفكار وملاحظات واستنتاجات.

لم يكن استهداف استخبارات المحتلين وأجهزة التنسيق الأمني لباسل على مدى السنوات السابقة بسبب نشاط شاب في المظاهرات التي كانت تشهدها ميادين رام الله المستباحة وفي مواجهة حواجز الاحتلال العسكرية، فقط. بل، لكون هذا «المتمرد الثوري» رأس حربة كل

المواجهات وديناميو الحراك الشبابي، والأخطر، أنه العقل الذي يصوغ الشعارات والأهداف، من خلال ماكان يكتبه أو يتحدث به في جولاته وزياراته الميدانية للأماكن التي لها دلالاتها في حدث سياسي أو مواجهة مع المحتل أو في موقعة لاستشهاد قائد أو مجموعة فدائية في مواجهة المستعمر. ولكون هذا الشاب قد ثبت في مواجهة المحققين، في سجون السلطة التي دخلها مع خمسة من رفاقه في شهر نيسان / أبريل 2016 بتهمة التحضير لعمل مسلح ضد المحتلين، بعد أن تم اعتقاله وبعض رفاقه في وديان قرية عارورة في قضاء رام الله . في أثناء التحقيق تعرض الشباب لأشد صنوف التعذيب، حتى أن قلب باسل توقف عن النبض ثلاث مرات، كما قالت والدته بالصوت والصورة «شريط فيديو»، مما اضطر جهاز التحقيق لتحويله للخدمات الطبية عدة مرات .وقد اضطرت السلطة بعد عدة أشهرلإطلاق سراح الموقوفين الستة بعد أن خاضوا إضراباً عن الطعام منذ تاريخ 28 آب ولغاية 6 أيلول، واستطاعوا بإرادتهم الصلبة، إطلاق حملة شعبية واسعة وضاغطة، أثمرت عن تحويلهم لأول مرة للمحاكمة وتم إطلاق سراحهم، بكفالة، يوم 8 أيلول .

لم تكن شوارع المدن هي المجال الحيوي للتحرك الشبابي الشعبي الذي يكون باسل في مقدمته، بل إنه جال في قرى وجبال ووديان وسهول الوطن، باحثاً في تربتها وصخورها وكهوفها عن تاريخ الناس وعلاقتهم بالأرض، وعن كل فدائي قاتل واختفى بعيداً عن عيون المخبرين والعملاء والمحتلين من أجل الانطلاق لجولة جديدة من القتال، ثم استشهد. كان باسل يستلهم من دروس كل التجارب في نقاشاته العديدة مع الفلاحين في تلك المناطق، تقديم النماذج المضيئة في تاريخ الشعب، بهدف ربط الماضي بالحاضر من أجل صياغة المستقبل : التحرر من الغزاة المحتلين.

بعد ذلك، أخذ الباسل قراره، توارى عن الأنظار، بعد أن اعتقل العدو بعضاً من رفاقه. قرر الاختفاء، ليس خوفاَ أو جُبناً ، بمقدار ماكان يصوغ خطة عمل ونهج كفاحي يجب العمل عليه ، لجيل يقود المعركة مع المحتلين. تنقل باسل متخفياً تحت اسم مستعار، في حركة حذرة، لمتابعة تواصله مع الحلقة الضيقة التي تحيط به والتي شَكلت ديمومة العلاقة مع الحراك الشبابي. إختفى، من أجل أن يستعد ويتحضر للساعة الحاسمة والفاصلة. جَهَز المكان بضرورات الحياة البشرية من طعام وماء، ومن غذاء العقل: الكتب.خبأ السلاح والطلقات وأصبح بكامل جهوزيته.واستطاع بعد كل تلك التجارب والدروس، أن يصل إلى الإجابة على كل تلك الأسئلة الكبرى المرتبطة بالوطن والتحرر من الغزاة المحتلين ومن كل مظاهر التخلف والقهر والزيف والتضليل التي روج لها صانعو «اتفاق أوسلو» بالحديث عن «سلطة بدون سلطة» كما قال رئيسها أمام مجلس الأمن الدولي يوم 20 / 2 / 2018 . هذه السلطة التي قامت بتسجيل سابقة تاريخية غير معروفة حينما حاكمت الشهيد باسل على وقائع استشهاده.

إرتقى الباسل شهيداً بعد أن «عاش نيصاً وقاتل كالبرغوث» كما كتب عنواناً لإحدى مقالاته. قاتل من المسافة صفر، وهو المُعجب بعمليتي «وادي عيون الحرامية» قرب بلدة سلواد 3/ 3 / 2002 ، و«زقاق الموت» الخليل 15 تشرين الثاني / نوفمبر 2002 .

في وصيته التي افتتحها بـ (تحية العروبة والوطن والتحرير) تكثيف واضح للثوابت التي آمن بها الباسل. فقد كانت العروبة بالنسبة إليه، انتماءً ووعياً ومقاومة. لهذا كانت زيارته للبنان،

تجسيداً لذلك الانتماء وترجمة لعمق الوعي المقاوم. أما الوطن والتحرير فقد تجسدا فكراً واستشهاداً، بالتوأمة بينهما .أما خاتمتها، فتحمل من كاتبها، اعترافاً بالقناعة التامة لما وصل إليه، بوعيه وثقافته التي مارسها على أرض الواقع (أنا الآن أسير إلى حتفي راضياً مقتنعاً وجدت أجوبتي، يا ويلي ما أحمقني وهل هناك أبلغ أو أفصح من فعل الشهيد. وكان من المفروض أن أكتب هذا قبل شهور طويلة إلى أنَّ ما أقعدني عن هذا هو أن هذا سؤالكم أنتم الأحياء فلماذا أجيب أنا عنكم فلتبحثوا أنتم. أما نحن أهل القبور فلا نبحث إلا عن رحمة الله).

**مقتطفات مختصرة مما كتبه باسل:**

1- في «البوستات» التي امتدت لتسعين بوستاً ، بعضها سطر واحد ومعظمها عدة صفحات، كتب خلالها الشهيد، تعليقات سريعة على الأحداث، كما عالج بعضها بتفصيل من أجل الاستخلاصات الهامة. في أحد النصوص الرائعة ، كما تجسد في البوست رقم 6 ص 235 الذي يحمل عنوان «مدونات بانوراما اغتيال زئيفي» نجد أنفسنا للوهلة الأولى أمام كاتب لم يتخيل الحدث، بل شارك في صناعته.إذ يعتقد القارئ أن الشهيد باسل كان ضمن المجموعة التي نفذت إعدام الوزير السابق المجرم المستعمِر «رحبعام زئيفي» صاحب نظرية الترانسفير للفلسطينيين ،لهذا يعتقد القارىء بأنه كان مع «مجدي الريماوي وحمدي قرعان وباسل الأسمر» وعلى معرفة بالقائد المخطط والمشرف، مسؤول الجناح العسكري للجبهة الشعبية في الضفة الغربية «عاهد أبو غلمة» الذي قدمه، قائداً ثورياً مُجرباً، مُطلقاً عليه صفة «مثقفٌ مشتبك بكل معنى الكلمة».

- في البوست رقم 8 ص 245 يكتب «سنن ثورية فلسطينية» عن شكل الثورة المتوج والمتحرك وعن تيارين يتصارعان داخل الشعب (التعامل مع العدو ورفض التعامل) وعن فترات الكمون بالحركة الشعبية وتفجرها

- في «البوست رقم 41 ص 282» يقوم باسل بطرح مجموعة قضايا مجتمعية ، تبدو للوهلة الأولى وكأنها تعبير لإبراز سذاجة وبساطة سكان الريف الفلسطيني. فتحت عناوين «قصة الحمامات العامة وقصة الشلحات النسائية وقصة الكهرباء» يتوجه باسل لكشف مضمون تلك الحالة الشعبية الرافضة لكل منها، لسبب واضح ومحدد أنها «جاءت من اليهود المحتلين » وهي كما يؤكد الكاتب «نوع من أنواع المقاومة الخفية التي تملكها المجتمعات لكل ماهو استعماري».

- في «البوست رقم 90 ص326» كتب باسل (لماذا نذهب إلى الحرب) . نصاً يرقى إلى نوع الحوار مع الذات، حتى ولو أنه جاء بصيغة رسالة توجه بها إلى «صديقي العزيز». هنا، نجد مصارحة في تقييم التجربة الذاتية النضالية التي استمرت لسنوات عديدة من خلال مايكتبه بـ«دهشة الأطفال وإيمان الأنبياء» ليصل للإجابة على السؤال، إننا «نذهب للحرب بحثاً عن الرومانسية، رومانسية الحرب التي تخلق صنفاً آخر من البشر، فلا أحد قبل الحرب كما بعدها، نطارد الرومانسية ولايوجد أي شيء في الدنيا قادر على أن يُثير الرومانسية أكثر من الحرب». نستنتج من هذا النص أن باسل قد وصل للإجابة على سؤال الوجود لباحث عن المعرفة في الكتب والسيّر والسرديات، ولمُثقف مناضل ومقاتل بالكلمة والحجر وصولاً للسلاح الناري ، إلتزاماً بما أعلنه «إذا بدّك

تصير مثقف، لازم تصير مثقف مشتبك، ما بدّك تشتبك، ما في فايدة لا منك ولا من ثقافتك». لهذا، وحتى لاتتحول الثقافة والمعرفة إلى حبر على ورق، أو للتسويق على إحدى وسائل الإعلام، لئلا يتحول ذلك الجهد النظري إلى ترف،حسم قراره واستعد للحظة الحقيقة : ساعة الاشتباك والمواجهة المباشرة مع الغزاة المستعمرين.

2- يكتب باسل عن مسار الانتفاضات والثورات المسلحة والمعارك التي قاتل فيها الشعب ضد الغزاة، العديد من الدراسات والأبحاث : في فصل «الكفاح المسلح في ثورة 1936» يتحدث عن تلك الثورة بعد سردية تاريخية هامة عن سنوات الركود «1921 – 1925» التي انتهت باشتباكات آب 1928 التي مهدت لثورة البراق عام 1929 لتنتشر حينها شرارة الثورة لتشعل النار في كل مناطق تواجد الغزاة المستعمرين .من القدس إلى الخليل فصفد إلى يافا وعمال الموانئ، مما وفر البيئة الشعبية الوطنية لتنطلق بعدها بسنوات ثورة عز الدين القسام تشرين الثاني / نوفمبر 1935 التي كانت بروفة لثورة 1936. وقد شكلت الثورة الكبرى في ذلك العام انعطافة هامة في تطويرالوعي ورفع درجة الاستعداد للمواجهة الشاملة، وهذا ماظهر في التنسيق الكامل بين العمليات العسكرية والتمرد الثوري الشعبي الذي استمر في إضرابه الشهير لستة أشهر.

- كما كتب باسل عن معارك الدفاع عن المدن والقرى في مواجهة العصابات اليهودية الصهيونية المسلحة والمدربة جيداً. ويشير إلى دور القادة الكبار: فرحان السعدي وأحمد طافش وعبد الرحيم الحاج أحمد وأبو ابراهيم الكبير وعبد الحليم الجولاني وعبد القادر الحسيني وعارف عبد الرزاق. ولاننسى للشهيد باسل، دوره في التركيز على فدائيين أسطوريين هما: فوزي نامق القطب وأنطوان جميل بارود. فوزي القطب: الفدائي الشبح الذي أفقد العدو صوابه، لأنه العقل العلمي والتقني، وقائد فرقة التدمير العربية وأحد أبرز القيادات الفدائية المتخصصة بتصنيع المتفجرات وتفخيخ السيارات، كما يُسجل له أنه كان سباقاً في صناعة البالونات المتفجرة– استمرارها اليوم في غزة - وإلقاء القنابل على مقاهي اليهود. أما الفدائي الآخر أنطوان بارود، فهو المقاتل الأممي، الفلسطيني الجذور، لأسرة من بيت لحم هاجرت لأمريكا الجنوبية ،الكولومبي المولد عام 1909، الذي قاتل تحت قيادة عبد القادر الحسيني وبشراكة كفاحية وعملية مع فوزي القطب، ثم عاد لأمريكا الجنوبية ليقاتل في أكثر من مكان ضد الجيش الاستعماري الأمريكي وليدخل مع كاسترو وغيفارا هافانا، وبعد ذلك رافق غيفارا إلى بوليفيا وقاتل معه. وقد انضم لاحقاً للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ووافته المنية في الكويت آب 1969 أثناء زيارةٍ لأقاربه هناك.

- تصدى باسل بشكل مباشر لمايتعرض له مقاومو شعبنا في الجزء المحتل من الوطن الفلسطيني عام 1948 على يد أجهزة العدو السياسية والإعلامية التي تصف كل فدائي بأنه «مريض نفسي»!؟. الكارثة هنا، كما يكتب باسل، أن يردد ذلك بعض أبناء الشعب، ويستشهد بما دار من ثرثرات وترهات عن الفدائي «نشأت ملحم» الذي نفذ العملية البطولية في شارع ديزنغوف في «تل أبيب» في 1/1/ 2016 ولوحق لمدة أسبوع قبل أن يسقط شهيداً في اشتباك مع وحدة «يمام». لقد كتب باسل في تحليل السقوط الوطني والأخلاقي لبعض أبناء الشعب من خلال تبنيهم لتفسير المحتلين، مشيراً إلى أن «فرانز

فانون» عالج هذه الظاهرة في الجزائر، وذلك من خلال كون المستعمَر يشعر بالدونية مما يجعله يتبنى مايقوله المستعمِر الذي ينفي الصفة الوطنية والقومية عن المقاوم ويُقدمه كحالة مريضة فقط، من أجل تسخيف روح المقاومة وإسقاط أي فكرة للمواجهة.

- في ص 122 وتحت عنوان «الانتفاضة دمرتنا» يتحدث عن هذه الادعاءات مفنداً مايردده بعض أفراد الشعب من تكرار لما تقوله ماكينة العدو الإعلامية. يكتب باسل (المطلوب لكي يكون النقد، موضوعياً ووطنياً وثورياً، أن يقوم على مراجعة التطبيق وليس النظرية أو الأيديولوجيا التي تقف وراء التجربة).

- في معالجته لأهمية دور الشباب والشابات في معركة التحرر، يمكننا الاستنتاج أن التحليلات والاستخلاصات تكون أقرب إلى الموضوعية منها إلى التوصيف المجرد. ففي فصل «حزب الكنبة الفلسطيني، ص176» المنشور في مجلة الدراسات الفلسطينية مجلد رقم 23، عام 2012 بالمشاركة مع زيد الشعيبي، تأكيد على أن الشباب كانوا هم وقود وجنود جميع المراحل النضالية. لكنهم الآن بمرحلة الإقصاء او العزوف عن المشاركة بالحياة السياسية، على عكس دورهم في انتفاضتي 1987 و2000، والسبب برأي الشهيد : دور السلطة في قيادة المجتمع من خلال مؤسسات بيروقراطية تعمل بمحددات اتفاق أوسلو، بهدف تشويه الرموز الوطنية في عقول الجيل الجديد، مما أدى لانتشار ثقافة الخلاص الفردي على حساب المصلحة العامة، وهنا يبرز دور المنظمات غير الحكومية ( الإن جي أوز) بالتخريب الناعم. على الجانب الآخر، يؤكد باسل على ضرورة أن يعمل القادة الشبابيون داخل الحراك الشعبي، من أجل إعادة تفعيل وتنشيط القيم الوطنية الجماعية لإعادة النهوض بالشعب، بعد أن بدأت معاول قوى التخريب المحلية والاحتلالية في هدمها.

- في فصل (لاتكن مع الاحتلال ضدهن، ص 191) يُقدم باسل رؤية فكرية معرفية جذرية لتبديد العديد من أنماط التفكير، وأساليب التعامل مع المرأة . يكتب ( تنشأ عند أبناء المجتمعات المقهورة، والواقعة تحت الاستعمار، خاصة، علاقة ازدراءٍ ضمنية للذات والآخر«داخل المجتمع» فَتُصَبُّ على غيرهم من أفراد المجتمع حيث يعكسون العار والمأساة ضمن منهجية واحدة. وعندما يجاهر المقهور بمقولات مسيئة لغيره من الواقعين تحت القهر ذاته، إنما هو يعبر عن مدى شعوره بالضعف والدونية والذنب، وذلك من أجل الحصول على توازن نفسي والتخلص مما يحيط به من توتر وانفعال).لهذا فإن رفض استلاب المرأة انطلاقاً من استلابها العقائدي لدورها بالمجتمع، إلى رفع الظلم الذي يلحق بها بالاستلاب الاقتصادي ووضع العراقيل لمنعها من الاعتماد على انتاجها الذاتي، ثم استلابها الجنسي.لذلك، فإن رفع التسلط الداخلي الذي يحيط بالمرأة، ضرورة من أجل تمكين نصف المجتمع للانتقال من موقع الضحية إلى موقع الحرية والتحرر من غلال التخلف والنظرة الدونية، وبالتالي،إلى رحاب الميادين في مواجهة المحتل الذي يضطهد كل الشعب.

- دَرَسَ باسل البيئة الطبيعية المحيطة به ليستنتج منها منها الدروس والعِبَر. في النص الذي حمل عنوان «عش نيصاً وقاتل كالبرغوث،ص 166» الذي كتبه في أوخر عام

2013 اقتباس عن حياة حيوان النيص في عالمه الخاص داخل جوف الأرض عبر الأنفاق. وعن قدرة تلك الحشرة الصغيرة جداً «البرغوث» التي تمتص دم ضحيتها من خلال معرفتها بنقاط الضعف الجسدي، وبقدرتها على القفز والتنقل الدائمين فوق ذلك الجسد. في ذلك النص الجميل والبسيط، أراد باسل أن يقدم لكل مهتم بالمقاومة تلك النماذج التي يعرفها أبناء الريف الفلسطيني، للتعلم من أسلوب حياتها في الاختفاء والحركة.

- في فصل (وهم اليسار المتضامن، ص 146) يتصدى الشهيد لكتبة يعملون بسوء النية لتحسين صورة الاحتلال ولدفع الأجيال الصاعدة لسراب السلام، الذي هو الاستسلام. يدحض باسل واحدة ممن يُصفق لها البعض في مجالسهم وكتاباتهم، الكاتبة الصحفية «عميرة هس». يكتب باسل(عميرة هس لاتختلف عن أي مثقف من مثقفي المُستَعِمر، وهي ليست إلاّ جندياً في المعركة الخلفية التي يطلقها المستعمر في ميدان الثقافة والقيم... تعترف بـ«حقوقك» لكن بشروط، وأهم تلك الشروط أن تظل تدور في فلكها وأن لاتحاول التمرد على ماتُلقنه لك، وصار لزاماً على المستَعمَر أن يهضم ثقافة مضطهديه) انتهى الاقتباس.

- يكتب باسل عن المجلس الوطني، وكأنه بيننا ومعنا في مراقبته ومتابعته للمجلس ولكل مؤسسات المنظمة. يكتب (في كل المظاهرات التي شهدتها شوارع بعض مدن الضفة وقادها الحراك الشبابي، بُح صوت الشباب والشابات بهتاف «الشعب يريد مجلساً وطنياً جديداً»). ويغوص باسل في تفاصيل الهدف المنشود: كيف تتم الانتخابات لعضوية المجلس؟ وعلى أي أرضية نقف؟ وهل نتوجه لها وفق التزامات منظمة التحرير أم وفق الميثاق المشوه «المُعدل»؟ وهل يتم ضمن سياسة الكوتا والمحاصصة بين الفصائل ؟ أم بما يخدم مصالح الكومبرادورات وهوامير المال والأعمال؟. يجيب الشهيد على ذلك باستفاضة (ص203) ليصل لاستنتاج ( أنا لاأؤمن إلاّ بالتغيير الجذري للنظام الاجتماعي والسياسي).

**استنتاجات**

بعد هذه الجولة السريعة على بعض الأفكار التي كتبها أو تحدث عنها باسل. يمكنني تكثيف القضايا التي ركز عليها في ثلاث نقاط أساسية :

1- أهمية الوعي النظري المنغمس في قضايا الناس- الطبقات الشعبية، والمُعبر عن تطلعاتها في التحرر.لأن هذا الوعي هو الذي يوفر للشعب ومناضليه، القدرة على تحليل الراهن: الاحتلال والاستعمار، الاضطهاد والاستغلال، التخلف والاستبداد، وصولاً لمقاومته بالعنف الثوري من أجل تغيير الواقع. لهذا فإن «التخفف من الأيديولوجيات» كما احتوت مقدمة الكتاب، لاتعني أن الحيادية في الصراع الأيديولوجي والنظري كانت سمة الشهيد، لأن انحيازه للطبقات الفقيرة بالمجتمع كان واضحاً ولايحتمل الالتباس، انطلاقاً من وعي بتحالف الرأسمالية مع الصهيونية في مواجهة حركات التحرر. وهذا

ماعبَّرَعنه في ص307 «حربنا لن تنتهي حتى يتم انهيار إسرائيل وانهيار الرأسمالية العالمية».

2- المقاومة، بكل أشكالها، وفي مقدمتها الكفاح المسلح. وقد أفرد الشهيد في أوراقه مساحات لتحليل الهبات والانتفاضات الشعبية في مسار الصراع الأبدي مع الغزاة . وتناول تجارب المقاومة الإقتصادية: نموذج بيت ساحور خلال انتفاضة 1987 . كما كان للمقاومة من أجل التنمية، مُركزاً على نظرية التنمية بالحماية الشعبية، أي المقاومة الاقتصادية : مقاطعة بضائع العدو والاعتماد على الإنتاج المحلي من خلال المشاركة الجماعية المحلية ، كنهج مُقاوم في مواجهة الدعوات التضليلية التي أطلقها بعض دعاة الارتباط بالسوق الاقتصادي للمستعمر من خلال «التنمية تحت الاحتلال».

3- حماية النسيج المجتمعي الفلسطيني من الأمراض الاجتماعية، خاصة، عند الشباب: الاستلاب وترسيخ الاكتئاب الوجودي لديهم، والنظرة الاستهلاكية في رسم أسلوب الحياة، و ترسيخ مفهوم الدولة القُطرية وتشجيع الشوفينية الفلسطينية في الترويج لمتسابق فلسطيني في برامج الفضائيات الغنائية من أجل تصنيع «قدوة» مزيفة لشعب يقاتل الغزاة . يكتب باسل في البوست رقم 24 الصفحة 263 (أنا شخصياً أُصوت لحذاء الدقامسة ولاأُصوتُ لأكبر رأس مشارك في مثل هذه البرامج).

**خاتمة**

في داخل ساحته التي استعد فيها للمواجهة وللإجابة على الأسئلة التي طرحها الواقع المباشر، كانت أدوات الإجابة تختزل أية اجتهادات وتوفر الوقت لكل باحث عن الحرية : الكتاب/ الوعي والبندقية المُسيسة والإرادة .

باسل الأعرج ، كان مثقفاً ثورياً وفدائياً مقاتلاً من أجل قضيته وقضيتنا جميعاً ونموذجاً للمثقف المشتبك. وقد جمع في ذاته نموذجين بارزين في حركتنا الوطنية التحررية : غسان كنفاني ووديع حداد.

يكتب شهيد قضية التحرر الوطني والقومي «غسان كنفاني» (كل قيمة كلماتي كانت في أنها تعويض صفيق وتافه لغياب السلاح، وإنها تنحدر الآن أمام شروق الرجال الحقيقيين الذين يموتون كل يوم في سبيل شيء أحترمه).

الباسل أحد أولئك الرجال الحقيقيين الذين مزجوا الأفكار مع النضال الميداني، من أجل حرية وطنهم وكرامة شعبهم.

باسل / سنبقى نردد ماأكدته «لا تحلموا بعالم سعيد ما دامت "إسرائيل" موجودة».

**أيها الباسل ...**

**سلام عليك، وأنت تعيد لهامات فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير، الارتقاء في سماء صفد والخليل وكل فلسطين.**

**سلام عليك ، يابيرق النصر يرفرف خفاقاً في يد عبد القادر الحسيني.**

**سلام عليك، وأنت تخطو بثبات وعزة نحو أحراش يعبد لتُقَبل رأس عز الدين القسام.**

**سلام عليك، وأنت تلتقي بشادية أبو غزالة ودلال المغربي وهنادي جرادات وريم الرياشي وتقول لهن أن ماجدات فلسطين مازلن في الصفوف الأولى للمواجهة مع العدو.**

**سلام عليك، وأنت تستقبل إبراهيم أبو ثريا وفادي أبو صلاح اللذين انغرست أطرافهما السفلية في تراب غزة ، بطولة ووعداً بالانتصار.**

**سلام عليك، وأنت تجتمع مع غيفارا غزة ومحمود طوالبة وعلى أبو طوق وحمدي وخالد أكر وعدي وغسان ومعتز، لتُخبرهم بأن الراية لم ولن تسقط طالما يحملها شباب وشابات تعلموا التضحية والفداء من أمثالهم.**

**سلام عليك، يامن تعلمت من التاريخ المجيد لشعبك،ومن حكايات الجد والأب والعمة، أن أرض فلسطين لاتقبل القسمة ولا التبادل ولا التنازل.**

**سلام عليك، وأنت تحلق في فضاء الشعب والأمة، نسراً ينظر بكل استخفاف وازدراء لتلك النسور الزائفة التي تلمع على أكتاف من لاحقوك وعذبوك.**

**سلام عليك، لأنك أعدت للأفكار وضوحها وبهاءها بعد أن ترجمها الفعل المقاوم، رصاصاً في وجه الغزاة المحتلين.**

**سلام عليك ياعطراً يغمر تراب الوطن بعبق الشهادة.**

**سلام عليك وسلام إليك يانجمة صبحنا القادم، مقاومةً وانتصاراً.**

**شكراً .**

* الورقة التي قُدمت باللقاء الحواري الذي أقيم في «دار الندوة»- بيروت مساء يوم الإثنين 18 / 3 / 2019 في ذكرى مرور عامين على استشهاد المثقف المشتبك «باسل الأعرج» الذي دعا إليه أصدقاء الشهيد للحوار حول كتاب «وجدت أجوبتي... هكذا تكلم الشهيد باسل الأعرج».

+ نُشرت الورقة في مجلة المستقبل العربي الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت – رقم العدد 482 – نيسان / ابريل 2019

---

# وجد أجوبته، فماذا عنّا؟ +

## قراءة في كتاب الشهيد باسل الأعرج

محمد العبد الله*

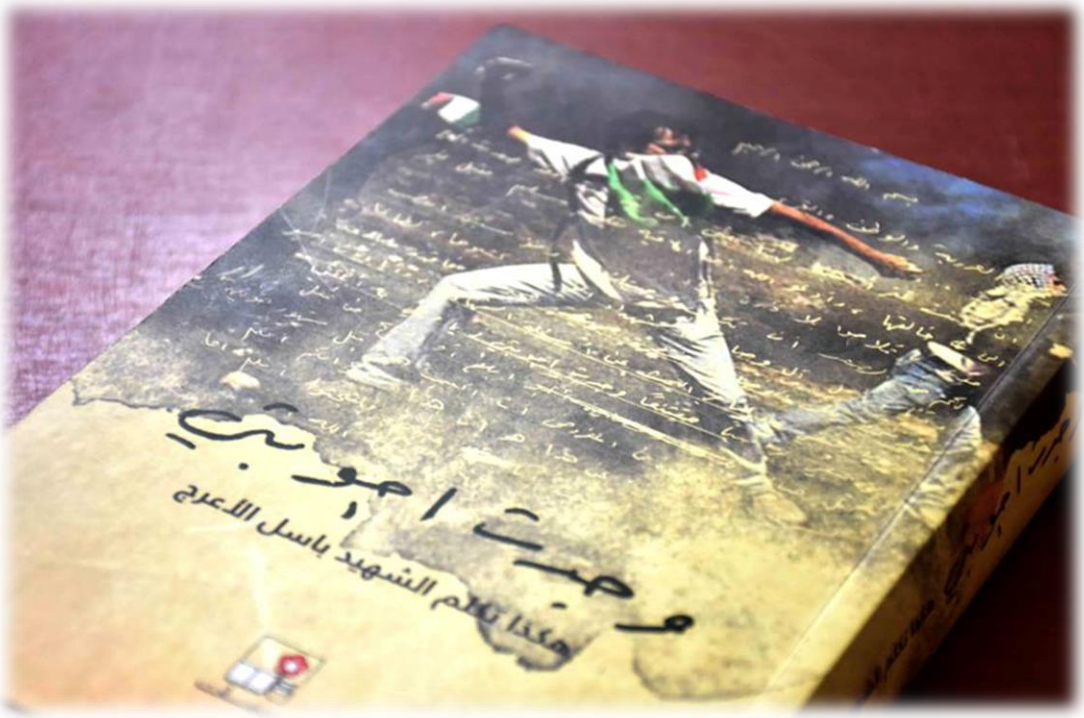


### عن الكتاب:

#### 1- كيف خرج للنور؟

بعد استشهاد باسل، تطوع عدد من أصدقاء وصديقات الشهيد، على جمع ماكتبه من أبحاث ودراسات، وكذلك التعليقات والبوستات على شبكة التواصل الاجتماعي، والمحاضرات واللقاءات التي أنجزها في جولاته الميدانية في القرى والبلدات على اليوتوب «تُقَدر بآلاف الصفحات». وقد تمكن كل أولئك، بجهد استثنائي في ظروف الاحتلال، من تأمين عدد لابأس به من الدراسات والأبحاث والمقالات والبوستات وتجميعها في الكتاب الذي نتناوله في هذا العرض. طُبع الكتاب في دار رئبال بالقدس المحتلة، العاصمة الأبدية لشعبنا، وصدر ووزع في الذكرى السنوية الأولى لاستشهاد باسل، كما تم إنجاز طبعة أخرى في «بيسان للنشر والتوزيع» في بيروت في نفس الفترة .

**2- المضمون**

بين دفتي الكتاب تتوزع 400 صفحة، مابين التقديم، والأبحاث والمقالات التي أخذت نصف عدد الصفحات، ثم «البوستات»، مع إضافات ممن أشرف على اعداد المنشورة : سيرة ذاتية للشهيد ومختارات ممن كُتب عن باسل بعد استشهاده، إضافة للكلمات التي ألقيت في ذكرى أربعين الشهيد، وفي ذكراه السنوية الأولى.

غلاف الكتاب الأمامي احتوى وصية الشهيد وصورة له من إحدى المظاهرات. يفتتح باسل تلك الوصية التي وجدت في الشقة التي استشهد فيها مع مجموعة من الكتابات الموجودة في هذا الكتاب بـ (تحية العروبة والوطن والتحرير). ثلاث كلمات فيها تكثيف واضح للثوابت التي آمن بها. أما خاتمتها فتحمل من كاتبها، اعترافاً بالقناعة التامة لما وصل إليه، بوعيه وثقافته وممارسته (أنا الآن أسير إلى حتفي راضياً مقتنعاً وجدت أجوبتي، يا ويلي ما أحمقني وهل هناك أبلغ أو أفصح من فعل الشهيد. وكان من المفروض أن أكتب هذا قبل شهور طويلة إلا أنَّ ما أقعدني عن هذا هو أن هذا سؤالكم أنتم الأحياء فلماذا أجيب أنا عنكم فلتبحثوا أنتم. أما نحن أهل القبور فلا نبحث إلا عن رحمة الله).

يتشكل محور موضوعات الكتاب ، في التأكيد على ثلاث نقاط أساسية :

1- أهمية الوعي النظري المنغمس في قضايا الناس، وتحديداً،الطبقات الشعبية.لأن هذا الوعي هو الذي يوفر للشعب ومناضليه، القدرة على تحليل الراهن: الاحتلال والاستعمار، الاضطهاد والاستغلال، التخلف والاستبداد، من أجل مقاومته بالعنف الثوري في سبيل تغييره.
2- المقاومة، بكل أشكالها، وفي مقدمتها الكفاح المسلح. وقد أفرد الشهيد في أوراقه مساحات لتحليل الهبات والانتفاضات الشعبية في مسار الصراع الأبدي مع الغزاة.وتناول تجارب المقاومة الإقتصادية: نموذج بيت ساحور خلال انتفاضة 1987. كما كان للمقاومة من أجل التنمية وقفة تحليلية ( ص 53 ) مُركزاً على نظرية التنمية بالحماية الشعبية.
3- حماية النسيج المجتمعي الفلسطيني من الأمراض الاجتماعية، خاصة، عند الشباب : الاستلاب وترسيخ الاكتئاب الوجودي لديهم، والنظرة الاستهلاكية في رسم أسلوب الحياة، و ترسيخ مفهوم الدولة القُطرية وتشجيع الشوفينية الفلسطينية في الترويج لمتسابق فلسطيني في برامج الفضائيات الغنائية من أجل تصنيع «قدوة» مزيفة لشعب يقاتل الغزاة . يكتب باسل في البوست رقم 24 الصفحة 263 (أنا شخصياً أُصوت لحذاء الدقامسة ولاأُصوتُ لأكبر رأس مشارك في مثل هذه البرامج).

## * القراءة والبحث من أجل معرفة الذات والمجتمع في وطن مُحتل:

من الورقة الأولى في فصل الأبحاث والمقالات يبدأ باسل في تفكيك النكبة:المفهوم والواقع في فصل (الذاكرة الجريحة للنكبة).في المفهوم الذي يعتبر تجسيداً مادياً للكارثة المأساوية التي أصابت الشعب الفلسطيني، تمكن هذا الشعب من تحويل المأساة التي أصابته لذاكرة جريحة. لكنها بالجانب الآخر، حملت في ثناياها البطولة والتضحية التي قدمها ومازال الشعب وأبناء

الأمة وأحرار العالم. وتجلت هنا قدرة الفرد والمجتمع على استخلاص نتائج المجازر التي يعددها الكتاب «الطنطورة، دير ياسين،الدوايمة، الطيرة... ». كما يشير الشهيد باسل إلى استنساخ اليهود الصهاينة لأساليب الغزاة البيض ضد أصحاب الأرض الأصليين في القارة الأمريكية الذين اصطلح على تسميتهم : الهنود الحمر، بطريقة القتل بالحرب الجرثومية.وقد قام اليهود الصهاينة بتلويث مياه قناة الشرب التي تغذي مدينة عكا بجرثومة التيفوئيد. أما (العونة والفزعة) فقد تناولها الشهيد من حيث كونها تعبير عن وعي مجتمعي أبدع تنظيماً اجتماعياً أفقياً، بعكس الهرمية الحزبية، ظهر في المشاركات الشعبية الواسعة في البناء والزراعة، لكنه أخذ بُعداً سياسياً ووطنياً في العمل الجماعي لإعادة بناء بيوت عائلات الشهداء التي يهدمها جيش الغزاة المحتلين. كما استحضر الشهيد في هذا الجانب التجارب الجماعية في تطوير الاقتصاد المقاوم من خلال الوعي بأهمية بناء التعاونيات والاعتماد على الذات: الزراعة المنزلية وتربية الدواجن، خاصة في فترات الانتفاضات والهبات والحصار.

في فصل (وهم اليسار المتضامن) يتصدى الشهيد لكتبة يعملون بسوء النية لتحسين صورة الاحتلال ولدفع الأجيال الصاعدة لسراب السلام، الذي هو الاستسلام. يدحض باسل واحدة ممن يُصفق لها البعض في مجالسهم وكتاباتهم، الكاتبة الصحفية «عميرة هس». يكتب باسل (عميرة هس لاتختلف عن أي مثقف من مثقفي المُستَعِمر، وهي ليست إلاّ جندياً في المعركة الخلفية التي يطلقها المستعمر في ميدان الثقافة والقيم... تعترف بـ«حقوقك» لكن بشروط، وأهم تلك الشروط أن تظل تدور في فلكها وأن لاتحاول التمرد على ماتُلقنه لك، وصار لزاماً على المستَعمَر أن يهضم ثقافة مضطهديه)انتهى الاقتباس.

وقد واجه بشكل لافت مايتعرض له مقاومو شعبنا في الجزء المحتل من الوطن الفلسطيني عام 1948. وكيف حاول العدو أن يصف كل فدائي بأنه «مريض نفسي» والكارثة هنا، أن يردد ذلك بعض أبناء الشعب. ويستشهد بما دار من ثرثرات وترهات عن الفدائي «نشأت ملحم» الذي نفذ العملية البطولية في شارع ديزنغوف في «تل أبيب» في 2016 /1/1 ولوحق لمدة أسبوع قبل أن يسقط شهيداً في اشتباك مع وحدة «يمام». لقد كتب باسل في تحليل السقوط الوطني والأخلاقي لبعض أبناء الشعب من خلال تبنيهم لتفسير المحتلين. مشيراً إلى أن «فرانز فانون» عالج هذه الظاهرة في الجزائر، وذلك من خلال كون المستعمَر يشعر بالدونية مما يجعله يتبنى مايقوله المستعمِر الذي ينفي الصفة الوطنية والقومية عن المقاوم ويُقدمه كحالة مريضة فقط. وذلك من أجل تسخيف روح المقاومة وإسقاط أي فكرة للمواجهة .

هنا يتقدم الشهيد الصفوف بتقديم رؤية فكرية معرفية جذرية في فصل (لاتكن مع الاحتلال ضدهن) لتبديد العديد من أنماط التفكير، وأساليب التعامل مع المرأة . يكتب باسل ص 192 (تنشأ عند أبناء المجتمعات المقهورة، والواقعة تحت الاستعمار، خاصة، علاقة ازدراءٍ ضمنية للذات والآخر«داخل المجتمع» فَتُصَبُّ على غيرهم من أفراد المجتمع حيث يعكسون العار والمأساة ضمن منهجية واحدة. وعندما يجاهر المقهور بمقولات مسيئة لغيره من الواقعين تحت القهر ذاته، إنما هو يعبر عن مدى شعوره بالضعف والدونية والذنب، وذلك من أجل الحصول على توازن نفسي والتخلص مما يحيط به من توتر وانفعال). لهذا فإن رفض استلاب المرأة انطلاقاً من استلابها العقائدي لدورها بالمجتمع، إلى رفع الظلم الذي يلحق بها بالاستلاب الاقتصادي ووضع العراقيل لمنعها من الاعتماد على انتاجها الذاتي، ثم استلابها الجنسي

،يُصبح مهمة ثورية. لأن التسلط الداخلي الذي يحيط بالمرأة، ضروري من أجل تمكين نصف المجتمع للانتقال من موقع الضحية إلى موقع الحرية والتحرر من غلال التخلف والنظرة الدونية، وبالتالي، إلى رحاب الميادين في مواجهة المحتل الذي يضطهد كل الشعب.

في عدة فصول، ورغم اختلاف العناوين والصياغات لكل مادة وحادثة وموقف، إلاّ أن المضمون، متشابه من حيث تحديد الهدف المباشر. في فصلي («حلوها وأسقطوهم كانون الأول 2012 » و«الشعب يريد مجلساً وطنياً جديداً 30 / 3 / 2013 » ) يحلل الشهيد عوامل ضعف السلطة ويكشف عن ضرورة حلها لأنها كما يكتب «مقاول من الباطن». فمن خلال تفكيك بنيتها القائمة على الفساد وثقافة أوسلو والتنسيق الأمني والاستجداء ووجود شريحة صغيرة ترتبط مصالحها مع الاحتلال ويشارك رموزها في مؤتمر هرتسيليا – هنا، يستحضر الشهيد دور الحركيين في الثورة الجزائرية - . ولهذا فإن كل ذلك يكفي لإعداد لائحة اتهام لمن يجب اسقاطهم وبالتالي إسقاطها. ويختتم الفصل بما قاله الشاعر الثوري المتمرد مظفر النواب«سنصبح نحن يهود التاريخ ونعوي في الصحراء بلا مأوى إن بقيت حالتنا هذي الحال بين حكومات الكسبة».

أما عن المجلس الوطني، فكأن باسل بيننا ومعنا في مراقبته ومتابعته للمجلس ولكل مؤسسات المنظمة. يكتب الشهيد (في كل المظاهرات التي شهدتها شوارع بعض مدن الضفة وقادها الحراك الشبابي، بُح صوت الشباب والشابات بهتاف «الشعب يريد مجلساً وطنياً جديداً»). ويغوص باسل في تفاصيل الهدف المنشود : كيف تتم الانتخابات لعضوية المجلس؟ وعلى أي أرضية نقف؟ وهل نتوجه لها وفق التزامات منظمة التحرير أم وفق الميثاق المشوه «المُعدل»؟ وهل يتم ضمن سياسة الكوتا والمحاصصة بين الفصائل ؟ أم بما يخدم مصالح الكومبرادورات وهوامير المال والأعمال؟. يجيب الشهيد على ذلك باستفاضة (ص203) ليصل لاستنتاج ( أنا لاأؤمن إلاّ بالتغيير الجذري للنظام الاجتماعي والسياسي. نعم ، أنا مع الإقصاء، من يتنازل عن 78% من فلسطين يجب إقصاؤه، من يرتبط بعلاقات مع العدو «المعسكر الاستعماري ككل» يجب إقصاؤه، من يحترف فلسفة اعتذارية عن نضالات شعبنا ويحقرها يجب إقصاؤه، وهل يستقيم الوضع بدون اقصاء هذه الفئة المارقة؟).

في ص 122 وتحت عنوان «الانتفاضة دمرتنا» يتحدث عن هذه الادعاءات مفنداً مايردده بعض أفراد الشعب من تكرار لما تقوله ماكينة العدو الإعلامية. يكتب باسل (المطلوب لكي يكون النقد، موضوعياً ووطنياً وثورياً، أن يقوم على مراجعة التطبيق وليس النظرية أو الأيديولوجيا التي تقف وراء التجربة).

## * المقاومة المسلحة رأس حربة المواجهة مع الغزاة.

أفرد الشهيد باسل عشرات الصفحات وهو ينبش تاريخ الكفاح المسلح الفلسطيني: أفراداً ومجموعات في مواجهة الغزاة المحتلين : بريطانيين ويهود صهاينة. مابين العمليات الفردية «أحمد عبد الغني أبو طبيخ» الذي حاول تصفية المدعي العام البريطاني«بنتوتيش» في فترة ثورة 1929 – 1930 إلى «غسان وعدي أبو جمل» أبطال عملية القدس المحتلة في المدرسة الدينية التلمودية 18/ 11 / 2014، ومابعدها، عشرات العمليات الاستشهادية الفردية، ليستنتج

الكاتب الشهيد أن هناك ضرورة دائمة لتقديم صورة البطولة والتضحية على البكائية والنواح التي يحاول البعض التمسك بها كلما أقدم المحتل وعصابات على قتل وحرق أبناء شعبنا وكأمثلة عائلتي«أبو خضير والدوابشة». كما أن الحديث عن المقاومة المسلحة لايستوي إلاّ إذا كانت البندقية الواعية والمسيسة(ص 119) قد انتقلت من رمزيتها في الهوية والوعي، كما ظهرت بالأغاني والأهازيج والأمثال والفن التشكيلي والملصقات وفي «الرجال والبنادق للأديب والسياسي المقاتل الشهيد غسان كنفاني»، إلى دلالة سياسية، بما تحمله من قدرة فاعلة في خدمة متطلبات المرحلة النضالية التي يخوضها الشعب.

ويرصد الشهيد باسل بعين الباحث والدارس مسار الانتفاضات والثورات المسلحة والمعارك التي قاتل فيها الشعب ضد الغزاة. في فصل «الكفاح المسلح في ثورة 1936» يتحدث عن تلك الثورة بعد سردية تاريخية هامة عن سنوات الركود «1921 – 1925» التي انتهت باشتباكات آب 1928يوم عيد الغفران الذي مهد لثورة البراق عام 1929 لتنتشر شرارة الثورة لتشعل النار في الوطن كله .من القدس إلى الخليل فصفد إلى يافا وعمال الموانئ. ولتبدأ بعدها بعدة سنوات ثورة عز الدين القسام التي كانت بروفة لثورة 1936. وقد شكلت الثورة الكبرى في عام 1936 انعطافة هامة في درجة الوعي والاستعداد والشمولية للحركة الشعبية، من حيث التنسيق الكامل بين العمليات العسكرية والتمرد الثوري الشعبي الذي استمر في إضرابه الشهير لستة أشهر.

وتعتبر معارك الدفاع عن المدن والقرى في وجه العصابات اليهودية الصهيونية المسلحة والمدربة جيداً، واحدة من أشرس جولات الصراع. وهنا برز دور القادة الكبار: فرحان السعدي وأحمد طافش وعبد الرحيم الحاج أحمد وأبو ابراهيم الكبير وعبد الحليم الجولاني وعبد القادر الحسيني وعارف عبد الرزاق. ولاننسى للشهيد باسل، دوره في الإضاءة على فدائيين أسطوريين هما: فوزي نامق القطب،الفدائي الشبح الذي أفقد العدو صوابه، لأنه العقل العلمي والتقني، وقائد فرقة التدمير العربية وأحد أبرز القيادات الفدائية المتخصصة بتصنيع المتفجرات وتفخيخ السيارات، كما يُسجل له أنه كان سباقاً في صناعة البالونات المتفجرة وإلقاء القنابل على مقاهي اليهود. أما الفدائي الآخر، المقاتل الأممي بجدارة، فهو الفلسطيني الجذور لأسرة من بيت لحم هاجرت لأمريكا الجنوبية ،الكولومبي المولد عام 1909، إنه أنطوان جميل بارود (ص 225) الذي قاتل تحت قيادة عبد القادر الحسيني وبشراكة كفاحية وعملية/ تقنية مع فوزي القطب، ثم عاد لأمريكا الجنوبية ليقاتل في أكثر من مكان ضد الجيش الاستعماري الأمريكي وليدخل مع كاسترو وغيفارا هافانا، وبعدها رافق غيفارا إلى بوليفيا وقاتل معه. وقد انضم لاحقاً للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ووافته المنية في الكويت آب 1969 أثناء زيارةٍ لأقاربه هناك.

تحت عنوان «عش نيصاً وقاتل كالبرغوث» الذي كتبه في أواخر عام 2013 اقتباس عن حياة النيص في عالمه الخاص داخل جوف الأرض عبر الأنفاق. وعن قدرة تلك الحشرة الصغيرة جداً «البرغوث» التي تمتص دم ضحيتها من خلال معرفتها بنقاط الضعف الجسدي، وبقدرتها على القفز والتنقل الدائمين فوق ذلك الجسد. في ذلك النص الجميل والبسيط، أراد باسل أن يقدم لكل مهتم بالمقاومة تلك النماذج التي يعرفها أبناء الريف الفلسطيني، للتعلم من أسلوب حياتها في الاختفاء والحركة.

في «البوستات» التي امتدت لتسعين بوستاً ، بعضها سطر واحد ومعظمها عدة صفحات، كتب خلالها الشهيد، تعليقات سريعة على الأحداث، كما عالج بعضها بتفصيل من أجل الاستخلاصات الهامة. كما أطلق لخياله الثوري كتابة بعض النصوص الرائعة ، كما تجسد في البوست رقم 6 ص 235 «مدونات بانوراما اغتيال زئيفي». للوهلة الأولى يعتقد القارئ أن الشهيد باسل كان ضمن المجموعة التي نفذت إعدام الوزير السابق والمجرم المستعمِر «رحبعام زئيفي» صاحب نظرية الترانسفير للفلسطينيين ،كان مع «مجدي الريماوي وحمدي قرعان وباسل الأسمر» وعلى معرفة بالقائد المخطط والمشرف، مسؤول الجناح العسكري للجبهة الشعبية في الضفة الغربية «عاهد أبو غلمة» الذي قدمه، قائداً ثورياً مُجرباً، وأطلق عليه في الفقرة الأولى بالصفحة 239 «مثقفٌ مشتبك بكل معنى الكلمة».

في البوست رقم 8 ص 245 يكتب «سنن ثورية فلسطينية» عن شكل الثورة المتوج والمتحرك وعن تيارين يتصارعان داخل الشعب ( التعامل مع العدو ورفض التعامل) وعن فترات الكمون بالحركة الشعبية وتفجرها .

## * دور الشباب والشابات في حماية النسيج المجتمعي وفي قيادة عملية التغيير.

عندما تقرأ مايكتبه الشهيد عن هذه الفئة العمرية، تستنتج أن التحليلات والاستخلاصات تكون أقرب إلى الموضوعية منها إلى التوصيف المجرد. ففي فصل «حزب الكنبة الفلسطيني» المنشور في مجلد الدراسات الفلسطينية مجلد رقم 23، عام 2012 بالمشاركة مع زيد الشعيبي، تأكيد على أن الشباب كانوا هم وقود وجنود جميع المراحل النضالية. لكنهم الآن بمرحلة الإقصاء او العزوف عن المشاركة بالحياة السياسية، على عكس دورهم في انتفاضتي 1987 و2000، والسبب برأي الشهيد : دور السلطة في قيادة المجتمع من خلال مؤسسات بيروقراطية تعمل بمحددات اتفاق أوسلو، من حيث أن السلطة عملت على تشويه الرموز الوطنية ولم تكتفي بإفراغها من مضامينها، في محاولة لتشويهه في عقول الجيل الجديد ، مما أدى لانتشار ثقافة الخلاص الفردي على حساب المصلحة العامة. وهنا يبرز دور المنظمات غير الحكومية ( الإن جي أوز) بالتخريب الناعم. لكن الشهيد يؤكد على ضرورة أن يعمل القادة الشبابيون داخل الحراك الشعبي، على إعادة بناء القيم الوطنية الجماعية لإعادة النهوض بالشعب، بعد أن بدأت معاول قوى التخريب المحلية والاحتلالية في هدمها.

## خاتمة

رغم لغة المواجهة والاشتباك والتحدي التي غلفت معظم محتويات الكتاب، إلاّ أن فقرات عديدة كانت تعكس لنا رهافة أحاسيس ومشاعرالشهيد. في «البوست» الأخير رقم 90 ص 326 يكتب باسل نصاً جميلاً بعنوان «لماذا نذهب للحرب» بصيغة رسالة مخاطباً «صديقي العزيز» في حوارية تتنقل مابين مناجاة الذات ومابين مخاطبة الآخر. في جوابه على السؤال يكتب (نذهب لها بحثاً عن الرومانسية، رومانسية الحرب التي تخلق صنفاً آخر من البشر... في الجبال تهاوت رومانسية الحرب إلا أنني كنت أراها أمامي فأركض وأحاصرها وأحاول الإمساك بها وتظل تسحبني... وفي السجن أيضاً نُطارد الرومانسية، فهي التي تمنحني رؤية واحتها).

لقد عززت تلك الرومانسية عند باسل القناعة بأن سعادة الإنسان في وطننا لن تتحقق طالماً كيان الغزاة المحتلين قائم . يكتب الشهيد ( لاتحلموا بعالم سعيد مادامت «إسرائيل» موجودة ).

## خلاصة:

حَمَلت كتابات باسل والندوات التي تضمنتها أشرطة الفيديو لجولاته الميدانية وحواراته مع الناس، وعياً سياسياً ومعرفياً استثنائياً في مواجهة سياسات التجهيل والتسطيح الهادفة كي الوعي الوطني، الفردي والجمعي، من خلال أجهزة إعلام السلطة ومؤسسات الإن جي أوز وقوى السوق الاقتصادية المرتبطة بكيان العدو وبسياسة التبعية لمراكز القرار الإمبريالية، وفي دحض مايسطره كتبة التبرير والثرثرات اللغوية و«تمجيد الفرد».

*** كاتب فلسطيني**

**+ جريدة الأخبار اللبنانية / صفحة رأي / العدد 3569 / يوم الخميس 20 أيلول 2018**

# الباسل في ذكراه الثالثة... تجذر الفكرة وتعميم الإجابة

محمد العبد الله*

«أوسلو قَسم الفلسطينيين وشعبنا سيحاكم هذه القيادة»

«إننا نحتاج مقاومة شاملة لأننا نواجه ليس احتلالاً شاملاً، بل شمولياً بكل ماتعنيه الكلمة من تفصيل».

(مقابلة مع الفدائي الأسير«وليد دقة» – جريدة الأخبار اللبنانية
(2019 / 4 / 11

«ليس أمامنا سوى أن نقاوم أو ننتظر الإبادة».

(من خطبة زعيم المقاومة الهندية «تِكومْسِه» في أول القرن التاسع عشر.
كتاب «دولة فلسطينية للهنود الحمر» ص 11 - تأليف الدكتور منير العكش.)

## مدخل

تأتي الذكرى الثالثة لاستشهاد باسل الأعرج هذا العام، وفلسطين القضية والشعب، تتعرض لمجزرة سياسية إمبريالية - صهيونية - رجعية، ستؤدي في حال استكمال حلقاتها إلى الإجهاز على الحقوق الثابتة للشعب العربي الفلسطيني في وطنه. لهذا فإن استحضار ذكرى هذا الشهيد، تتطلب إعادة تسليط الضوء بتكثيف شديد على ما حصل في ذلك الفجر الدامي ليوم 6 آذار/ مارس 2017 .

فقد بادر مُطارد فلسطيني لإطلاق النار على عناصر وحدة «يمام» الخاصة، التي طوقت المكان الذي يختفي به في مدينة البيرة بالضفة الفلسطينية المستباحة، بهدف اعتقال أو إعدام «باسل الأعرج». قاوم «المطلوب رقم 1» المتحصن في سقيفة الشقة السكنية التي كان قد استأجرها وأقام فيها قبل عدة أشهر. ساعتان من الزمن، خاض فيها المناضل المطارد مواجهة عنيفة مع الغزاة، بإرادة واعية، وصلبة لم تنكسر، وببندقية أفرغ كل رصاصها ليرتقي بعدها شهيداً.

لم يكن «الباسل» اسماً مجهولاً عند المحتل، ولا لأجهزة «سلطة الحكم الإداري الذاتي المحدود»، ولا لقوى الحراك الشبابي، ولا لكوادر وأعضاء القوى والحركات والهيئات الوطنية. كان ناشطاً سياسياً وجماهيرياً معروفاً لدى الجميع، لكنه كان متفرداً بين رفاقه وزملائه، من خلال ثقافته النظرية التي لم تبق في العقل، بل عمل على نقلها لأرض الواقع، كأداة للتحليل والاستنتاج، وبهذا حقق المزج الكامل ما بين المعرفة والممارسة.

استشهد «باسل» بعد ساعتين من الاشتباك العنيف الذي استخدم فيه الغزاة قذيفة «انيرغا» بقصف الشقة بعد أن عجز الرصاص عن إصابة الفدائي المطارد. دمرت القذيفة جزءاً من المنزل ليسقط «الباسل» مضرجاً بدمائه، بعد أن اخترقت جسده 22 طلقة وشظية. سقط الجسد

ليمتزج الدم مع الكتب والأوراق والكوفية، لكن اليد القابضة على السلاح والقضية لم ترفع الراية البيضاء، وهذا ما أكده شقيقه حين نعاه «لم تُسَلّم لهم، ومثلك لا يعرف التسليم. اخترت أن تكون مقاوماً وأن تموت شهيداً مقبلاً مشتبكاً لا خانعاً».

**الوصية: بوصلة جيل التحدي والمقاومة**

في الوصية التي وجدت في الشقة التي استشهد فيها مع مجموعة من الكتابات، تكثيف للقناعات المبدئية، وللأفكار والثوابت والنهج. في البدء يلقي «تحية العروبة والوطن والتحرير» ثلاث كلمات لَخصت الانتماء القومي والوطني وكيفية المزج والتوحد من خلالها في عملية التحرير. أما صوابية الاختيار فيؤكدها بقناعة تامة وثابتة بما اقتنع به من خلال الوعي والمعرفة والممارسة «أنا الآن أسير إلى حتفي راضياً مقتنعاً وجدت أجوبتي. يا ويلي ما أحمقني، وهل هناك أبلغ وأفصح من فعل الشهيد؟». أما عن استشراف المستقبل فقد خاطب بكلمات واضحة، غير ملتبسة، أبناء شعبه وأمته «كان من المفروض أن أكتب هذا قبل شهور طويلة إلا أنَّ ما أقعدني عن هذا هو أن هذا سؤالكم أنتم الأحياء فلماذا أجيب أنا عنكم فلتبحثوا أنتم. أما نحن أهل القبور فلا نبحث إلا عن رحمة الله».

بوصية ترقى إلى برنامج العمل، أكد «الباسل» على دور المثقف، كمصباح ينير طريق التواقين للحرية، وعلى أهمية الثقافة الثورية كحالة تؤسس لـ«المواطن المشتبك» مع المحتلين، هذا المواطن الذي شاهدناه في الفدائي الأسير «سند الطرمان» بطل عملية دهس جنود العدو في القدس المحتلة يوم 6 شباط / فبراير 2020 . فقد كتب «سند» على صفحته الفيسبوكية قبل توجهه لتنفيذ عملية الدهس «وجدت أجوبتي» في تأكيد، ليس فقط على ما كتبه «الباسل» في وصيته، بل على النهج / الأسلوب «الاشتباك مع العدو».

**باسل والوصايا غير المكتوبة لمن سبقوه**

لم يكن التاريخ عند باسل، سرديات للتأمل، فقط. فقد عمل شهيدنا على نبش التاريخ والبحث في منمنماته الصغيرة داخل الكتب والمذكرات، وفي الروايات التي سمعها من أصحابها، من أجل الاستفادة من كل تلك الأحداث لتأصيل المعرفة بالماضي كخطوة على طريق استلهام دروسه في معرفة الحاضر واستشراف المستقبل، لهذا جاء حرصه على معرفة الأرض، ميدان التجارب التاريخية، جال الوديان والكهوف والجبال، رابطاً الأحداث ببيئتها الجغرافية، بهدف تقديم التجربة للأجيال من حيث علاقتها بالمكان وخصائصه، كعامل أساسي في المقاومة والاختباء والاعتماد على الذات.

لم يقرأ «الباسل» تجارب الثوار في فلسطين بعين الدارس الأكاديمي، بل بعين الباحث عن مضمون الحدث وأبعاده: الفشل والنجاح، وعلاقة كل ذلك بالبيئة المحيطة: السكان والطبيعة . وتدل كتاباته في مجال التجارب الكفاحية للشعب في مواجهة الاحتلال البريطاني ومن ثم الغزو اليهودي الصهيوني، التي جُمع القسم الأكبر منها في الكتاب الذي حمل عنوان: «وجدت أجوبتي ... هكذا تكلم الشهيد باسل الأعرج» الصادر في الذكرى السنوية لاستشهاده، على إعجابه الشديد وتأثره بعمليات استثنائية متعددة، وكأمثلة عليها وليس للحصر: عملية (وادي عيون الحرامية) التي نفذها الفدائي الشاب «ثائر حماد» على حاجز عسكري لجيش الاحتلال

شمال مدينة رام الله في 3 آذار/ مارس 2002 وأدت لمقتل 11 جندياً ومستوطناً وجرح 9 آخرين بـ 26 رصاصة. عملية (زقاق الموت) في الخليل 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2002 نفذها الفدائيون الشباب «دياب محمد المحتسب، ولاء هاشم سرور، أكرم عبد المحسن الهنيني» في «الحي اليهودي» القريب من منطقة أبو سنينة قرب وادي النصارى القريب من مستوطنة «كريات أربع»، واستمر الاشتباك العنيف لعدة ساعات، وأدت العملية حسب اعتراف العدو الصهيوني لمقتل أربعة عشر جندياً وضابطاً صهيونياً من بينهم قائد قوات الاحتلال في الخليل العميد درور فاينبرغ).

**خاتمة**

يكتب شهيد قضية التحرر الوطني والقومي «غسان كنفاني» (كل قيمة كلماتي كانت في أنها تعويض صفيق وتافه لغياب السلاح، وإنها تنحدر الآن أمام شروق الرجال الحقيقيين الذين يموتون كل يوم في سبيل شيء أحترمه).

الباسل أحد أولئك الرجال الحقيقيين الذين مزجوا الأفكار مع السلاح، بتأكيد جديد على أن النظرية الثورية هي التي توجه البندقية نحو الهدف الأسمى؛ حرية الوطن وتحرر الإنسان.

باسل سنكرر دائماً ما أكدته «لا تحلموا بعالم سعيد ما دامت "إسرائيل" موجودة»، و«فلسطين هي الأجمل بالنسبة لي... جمالها في أنها هي من منحتني جوابي في البحث عن المعنى، وهي من أجابت عن أسئلتي الوجودية وتمنحني مبرر وجودي وتعالج قلقي الدائم» (كتاب وجدت أجوبتي ص 247 ).

أيها الباسل: ستبقى لكل من عرفك من رفاق ورفيقات دربك وأفكارك، ولشعبك وأمتك «مِسْكٌ فايِحْ» كما كتب عنك ولك الدكتور «سيف دعنا» في مقالته التي حملت عنوان: «باسل الأعرج: الفدائي الكامل».

*** كاتب فلسطيني**

http://alqudsnews.net

06/03/2020